دُرر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان لـ«بَابَ غُورُو»: دراسة في المصدر المفقود وأثره في السرد التاريخي لتاريخ الفتاش

د. معاوية إدريس توري

باحث من مالي – أستاذ مساعد الأدب العربي والنقد – الجامعة الإسلامية بالنيجر

تُمثّل المصادر المفقودة إشكالية منهجية متكررة في التاريخ الإفريقي؛ فكثيراً ما تُذكر أسماء الكتب في إحالات المصادر اللاحقة دون أن تصل إلينا نصوصها، مما يُلقي بظلاله على تقييم المادة الإخبارية المتوفرة وإعادة قراءة الظروف التي نشأت فيها.

وكتاب «دُرَر الحِسَـــان في أخبار بعض ملوك السُّـــودان» لمؤلفه «بَابَ غُـــورُو بن الحاج محمد بن الحاج الأميـــن كانْوَا»: Bāba Gouro ben al-Hājj Mouhamed ben al-Hājj al-Amīn Ghāno نموذجٌ بارز لهذه الإشكالية.

يُعدُّ هـــذا الكتابُ أحدَ المصـــادر التاريخية المهمة المفقودة التي تشـــكّل جـــزءاً من التراث الثقافي والتاريخي لملوك الســـودان الغربي، أو غـــرب إفريقيا جنوب الصحـــراء، وخاصةً فيما يتعلق بتاريخ مملكة ســـنغاي وحكّامها وأمرائها، بالإضافـــة إلى تركيزه على الباشـــوات المغاربة من الرماة الذيـــن تعاقبوا على الحكم بعد انهيار المملكة، كما يذكر وفيات بعض الفقهاء والعلماء الصالحين. غيـــر أن هذا المصدرَ لم يصل إلينا شيءٌ من أخباره ســـوى اسم مؤلفه وعنوان كتابه من خلال عدد من النقولات التي نقلها عنه «تاريخ الفتاش» لالفع محمود كعت التنبكتي، وقد أبرزت تلك النقولات أهميةً جليلةً ساعدت في الحفاظ على جزء مـــن تاريخ المصـــدر المفقود، إلا أن تلك المعلومات من نقولات الفتاش تقدّم لمحات محدودة، وتظلُّ غير كافيـــة للحكم على محتوى المادة الغائبة التـــي يمكن أن يقدمها كتاب «درر الحســـان»، فقد كان من المحتمل أن يقدّم رؤية شاملة عن الحياة السياســـية والاجتماعية لتلك الفترة، وتكون تلك المعلومات قد ســـاعدت إلى درجة كبيرة في كشـــف بعض المغاليق والرموز، وحـــل بعض الإشـــكاليات التاريخيـــة والثقافية المعقـــدة التي يطرحهـــا تاريخ الفتـــاش وبقية المدونات التاريخية الأخرى.

وقد زاد من الأســـى على ضياعه أن شاهداً حيّاً من أوثق الشـــهود وأعلامهم كفاءة في مجال المخطوطات، وهو الأســـتاذ عبـــد القادر ماما حيدرة مدير منظمة سافاما SAVAMA، أفاد بأنه رأى الكتاب بعينه في معهد الأبحاث بنيامي

«درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان» مصدر من الدرجة الأولى لدى تاريخ الفتاش، واعتمده ابن المختار في توثيق أحداث مملكة سنغاي

عام ١٩٨٧م، وأنه حين عاد إليه عام ٢٠١٥م وجد أن المخطوطات اختلطت وتعذّر إيجاده.

وتأتي هذه المقالة لدراسة الكتاب المفقود، وإبراز أهميته في تاريخ الفتاش، وأثر تجلياته في نقولاته. وقد قسّـــمتها إلى ثلاثة محاور: يتناول المحور الأول المؤلفَ وكتابـــه المفقود، معتمداً على اســـتنتاجات مدعومة بقرائـــنَ نصية وعلى فرضيات مطروحة للنظر؛ ويتناول المحور الثاني أثر درر الحســـان في الســـرد التاريخي لتاريخ الفتاش؛ أما المحـــور الثالث فمُخصص لظروف فقدان الكتاب وفرضيات اســـتعادته. ثم الخاتمة بنتائجها وتوصياتها.

إشكالية الدراسة:

تتبني هذه الدراســـة على إشـــكالية متعددة الأوجه ومتشابكة، منها:

■ إلى أيّ حدّ تستطيع نقولاتُ تاريخ الفتاش من كتاب «درر الحسان» المفقود إعادةَ صورة هذا المصدر معرفيـــاً ومنهجياً، مع إثبات مكانته في وسط المصادر التاريخية لغرب إفريقيا؟

■ مَنْ بين الكعتيّين الثلاثة الذين اشـــتركوا فـــي تأليف الكتاب كان الناقـــل الفعلي عن «درر الحسان»، وما الدليل على ذلك؟

■ مـــا الوظائف التـــي أدتها نقـــولاتُ «درر الحســـان» فـــي البنية الســـردية للفتـــاش، هل

كانـــت مجردَ توثيق، أو تجـــاوزت ذلك إلى النقد والترجيح؟

■ ما ظروف اختفاء الكتاب، والطرق العلمية الممكنة لاستعادته في ضوء المعطيات المتاحة؟

منهج الدراسة:

لقد اعتمـــدت هذه الدراســـة على منهجين متكاملين:

١- المنهج التاريخي النقدي:

وذلك من خلال تحليل الســـياقات التاريخية المحيطـــة بالمؤلف، وكتابه، وتوظيف الفرضيات المدروســـة في تحديد هوية بابَ غُورُو، وزمنه، مع الحرص على التمييز الدقيق بين ما هو ثابت بالدليل النصي وما هو مستنتَج بالقرائن.

٢- المنهج الفيلولوجي المقارن:

وذلك من خـــلال مقارنة نقولات الفتاش بما ورد في مصـــادر موازية، مثل تاريخ الســـودان، وتاريخ تذكرة النســـيان، وكفاية المحتاج، وتاريخ الدولة السعدية، وكل ذلك من أجل تحديد درجة التوافق والاختلاف، واســـتجلاء القيمة المعرفية لكتاب درر الحســـان. كما اســـتعانت الدراســـة بشـــهادات شـــفهية موثوقة، في مقدمتها شهادة الأســـتاذ والشـــيخ عبد القادر ماما حيدرة، التي تمثل وثيقة شفهية لا يمكن إغفالها بأي حال من الأحوال.

المحور الأول: المؤلف وكتابه المفقود:

أولاً: لمحة عن المؤلف بابَ غُورُو بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانْوَا:

١- شخصية المؤلف:

لا تتوفر لدينا معلومات كثيرة تســـاعدنا في الكشـــف عن هويّة هذا المؤلف الجليل، ومعرفة نسبه، وكل ما في الأمر أن تاريخ الفتاش هو أول من ذكر اسمَه وعنوانَ كتابِه، من خلال ما نقل عنه من المادة الإخبارية عن مملكة سنغاي التاريخية، وعن الحملة السعدية المغربية على بلاد السودان بقيادة جُودَرْ باشـــا عام ١٥٩١م، ومن خلال ذلك يُستشـــفّ أنه عاصر آثارَ الغزو الغربي السعدي، وتابَع حكمَ باشوات تنبكت، وكان آخر حدثٍ نقله عنه تاريخ الفتاش هو حدث قُدُوم القائد منصور بن بك من مراكش، وفي ذلك يقول: «وفي السنة الثالثـــة وألف، جـــاء القائد منصـــور بن بك من مراكش بمَحلَّة[١] كبيـــرة، فيها ثلاثة آلاف مقاتل وألـــف خيل، قاله بابَ كُـــور بن الحاج محمد في جواهر[٢] الحسان. انتهى»[٣]. ويعني ذلك أنه كان حيّـــاً في عام (١٠٠٣هـ). كمـــا نقل عنه الفتاش حدثاً آخر شملَ ترجمةً لعالمين جليلين من أسرة أقيت، وهما: العلامة محمود[٤] بن عمر بن محمد

(١) جيشٌ كبير أو معسكر متنقّل بكل مستلزماته يكون تحت قيادة السلطان أو أحد القادة الكبار، وقد ورد اللفظ في أماكن كثيرة في تاريخ الفتاش، ويُعدّ من المفردات الدارجة المغربية المستعملة في السودان الغربي. لمزيد من التفصيل حوله راجع: اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي وملامح التأثير المغربي، عبد العلي الودغيري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ط/١، ص١٨٣.

(٢) يلاحظ في هذا النص ورود «جواهر الحسان» بدلاً من «درر الحسان»، ويحتمل أنه خطأ نسخي في نقل الفتاش، وهو الأرجح؛ أو تبادل مجازي بين «الدرر» و«الجواهر»، وكلاهما يدل على الجواهر النفيسة.

(٣) تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظام الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، تأليف القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني التنبكتي الوعكري، وذيّله لبعض من حفدته، وقف على طبعه من غير تغيير نصه السيد هوداس مدرس اللغة العربية بمحروسة بباريس، وشاركه في ذلك تلميذه السيد دولافوس، مدرس اللغات السودانية.Librairie d›Amérique et d›Orient, Paris نشرت الطبعة الأولى سنة ١٩١٣م، مع ترجمة كاملة إلى الفرنسية، ثم أعيد طبعُه بباريس سنة ١٩٦٤م، ثم طبع مرة ثالثة سنة ١٩٨١م، وهذه الطبعة هي التي اعتمدناها، ص١٨٢.

(٤) محمود بن عمر بن محمد أقيت، بن عمر بن علي بن يحي التكروري التنبكتي، وهو قاضي تنبكت وإمامها وفقيهها، كان

أقيت، وأخيه الأكبـــر الحاج أحمد[1] بن عمر بن محمد أقيت.

ثمَّ قـــارن هذا الحدثَ الأخيـــر بما جاء في «كفايـــة المحتاج لمعرفة من ليـــس في الديباج» لأحمد بابـــا، الذي ألفه وهو في مراكش ســـنة ١٠١٢هـــ، ورجع بعـــد ذلك إلى تنبكـــت ما بين (١٠١٥-١٠١٦هـــ). ويتضح من هـــذا أن عودة أحمد بابا إلى تنبكت تزامنت مع الفترة التي كان فيهـــا صاحب «درر الحســـان» لا يزال في ريعان شـــبابه، وأنه قد اطلع على مؤلفـــات أحمد بابا وخاصةً كفاية المحتاج[2].

ونجد عند صاحب «تَذكرةُ النسيان في أخبار ملوك السُّـــودان» لمؤلف مجهول في حديثٍ عابر عن تاريخ وفاة بعض العلماء والأعيان، يذكر وفاةَ أحد إخوان بابَ غُورُو صاحب «درر الحســـان»، حيث يقول: «وفي أيامه (الباشا محمد بن الحاج بن داود الشّطوكي عُرف بالقائد بوي) مات خلقٌ كثير لا يُحصي عددَه إلا الله، وممن مات في أيامه من الأعيان والكبراء كالفقيه محمد بن محمد بن أبي بكر صادق جَدّ أُمّنـــا وطن والد أبيها رحمه الله، وجَدّ والدي اســـمه الفـــع الأمين بن محمد صـــود معلم الصبيان رحمه اللـــه توفي في آخر الســـنة، والفقيه القاضي عبد الرحمن بن الفقيه المفتي أحمـــد مُعيا رحمه اللـــه توفي في فاتح ســـبعين والله أعلم. وفي تلك الســـنة توفي عبد الرحمن بـــن الحاج محمد بن الأمين كانْوَا رحمه الله»[3]، وهذا كان في عام ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م، ومن هنا يُستنتج- على سبيل الترجيح- أن بابَ غُورُو وُلد في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، وأن وفاته كانت خلال العشرة الرابعة أو الخامسة من القرن السابع عشر الميلادي.

٢- عائلته:

على الرغم من قلّـــة المعلومات الواردة حول عائلته؛ فإنه يظهر حســـب المعطيات التي وردت في ســـياقات تاريخ الفتاش وتلميحاته أنه ينتمي لعائلة علمية مشهورة وثرية، وذلك باعتبار حجّ كلٍّ من والده الحاج محمد، وجدّه الحاج الأمين كانْوَا، ما يدلّ على أنهم كانوا من نبلاء القوم، ويتمتعون باحترام شديد لدى باشـــوات تنبكت، ويدلّ على ذلك قصة الباشا محمود بن زَرْقُون حينما أراد أن يجمع علماء وفقهاء تنبكت لإرسالهم إلى مراكش ضمن الحملة السعدية التي مات فيها خلق كبير، وفي ذلك يقول السعدي صاحب تاريخ السودان: «وقبضَهم جميعاً الباشـــا محمود زرقون يومئذٍ، وهو يوم الأربعاء الرابع والعشـــرون من المحرم، فاتح عام الثاني بعد الألف، وأســـرهم، وأَمَرَ بهم إلى القصبة... فقتلوا ساعتئذ أربعةَ عشر رجلاً من الأسارى، تسعة منهم من أهل سنكري، العلامة

من خيار عباد الله الصالحين العارفين به (٨٦٨/٩٥٥هـ)، ولي القضاء بمدينة تنبكت عام ٩٠٩هـ، فسدّد في الأمور وشـدّد، وتوخّى الحق، ولأهل الباطل هـدّد، حج بيت الله الحرام عام ٩١٥هـ، فلقي السادة من المشايخ الأجلاء مثل إبراهيم المقدسي، والشيخ زكريا، والقلقشندي وغيرهم، أخذ عنه أبناؤه الثلاثة، محمد والعاقب وعمر، ووالد أحمد بابا، وقيّد عنه بعض تلاميذه تقاييدَ أبرَزَها بعضُهم شرحاً في سفرين. راجع: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد بابا التنبكتي، ج/٢، دراسة وتحقيق محمد مطيع، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالمملكة المغربية، ص (١٣٢-١٣٣).

(١) جدّ أحمد بابا التنبكتي الشهير، (٨٦٢/٩٤٣هـ)، وهو من أهل الخير والفضل والعلم والدين، كان محافظاً على السنة والمروءة والصيانة والتحري، وهو أكبر الإخوة الثلاثة شهرةً وعلماً ودياناً، كتب بخط يده عدة دواوين وكُتُب، وجمع كثيراً من الفوائد والتعاليق والشروح، فترك نحو خمسمائة مجلد، راجع: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج/١، مصدر سابق، ص (١٣٢-١٣٣).

(٢) راجع: المصدر نفسه، ص١٣٥، وراجع أيضاً: اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي وملامح التأثير المغربي، مرجع سابق، ص١٩٦.

(٣) تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، مؤلف مجهول، تحقيق هوادس وديلافوس، ط/ ١٨٨٩م باريس، ص٤.

الفقيه، أحمد مُعْيَا، والفقيه الزاهد محمد الأمين بن القاضي محمد بن سيدي محمود، والفقيه المصطفى بن الفقيه مسراند عمر، والفقيه محمد بن أحمد بير بن الفقيه سيدي محمود، وبوزُ بن أحمد آدّا عثمان، ومحمد المختار بن معيا أشار، وأحمد بير بن محمد المختار بن أحمد... فانتهى القتل إلى محمد بن الأمين كانوَا، فقطعه أخ القائد أحمد بن الحداد فحمله على فرسه وهرب به إلى داره وسَلِمَ»[1].

وإذا أمعنا النظر في هذه الرواية نجد أن نجاة والد بابَ غُورُو تؤكد- بصورة جلية - على المكانة العلمية المرموقة لأسرته لدى باشوات تنبكت، بحيث استطاع خلقَ ظروف طارئة بوسيلة أو بأخرى ساعدت على نجاته وإنقاذه من القتل على يد الباشا محمود زَرْقُون، فلا شكّ أن خلقَ ظرفٍ استثنائي للتخلّص والنجاة من تدابير الباشا ليس أمراً هيّناً، وبالتالي لا يتأتى فعلُه إلا لشخصيات أرستقراطية يملكون كرامات لدى الباشوات والسلاطين والملوك، وهذا ما ذهب إليه الدكتور أحمد الشكري في بعض تحاليله لبعض مدونات غرب إفريقيا[2]. ولا شكّ أن هذا يعني أنّ السلطة في السودان الغربي لم تكن قائمة على القوة العسكرية وحدها، بل ارتبطت كذلك بالشرعية الدينية والعلمية. فقد اضطلع العلماء والفقهاء بأدوار تتجاوز التعليم والإفتاء، ليصبحوا وسطاء بين السلطة والمجتمع، وعنصراً أساسياً في بناء التوازنات السياسية والاجتماعية، ولا يتحقق شيء من ذلك إلا عن طريق الاهتمام بالبنى الاجتماعية وشبكات العلماء والعلاقات بين السلطة والمعرفة. فالحياة الفكرية في المنطقة لم تكن هامشية أو معزولة، بل ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتحولات السياسية والتجارية التي شهدها الفضاء الصحراوي والسوداني[3].

ويذكر الفتاش في موضع آخر حدثاً يؤكد ثراء عائلته وحبّها للعمل الخيري في سياق سردٍ يتعلق بجده الحاج الأمين كانْوَا والفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت رحمهم الله، هذا الأخير الذي قام ببناء المسجد الكبير- حسب رواية السعدي- وشرع في بناء مسجد سنكري ٩٨٩هـ/١٥٨١م بأمر من أسكيا داود، وذكر الفتاش أن الحاج الأمين كانْوَا تبرّع بمبالغ كبيرة لبناء الجامع الكبير، ويمكن قراءة الحدث فيما يأتي: «وحدثني بعض من أثق بروايته أن الحاج الأمين كانْ (كَانْوَا) سأله حين كان في بناء الجامع الكبير: كم يكون نفقة البناء ونهايته في يوم عليك؟ فقال: سبعاً وستين مثقالاً إلا ثلثاً، فقال الحاج الأمين: أريد منك أن تسامحني وتؤثِرَني أن أحملَ نفقةَ غدٍ. فَرَضِيَ له، وفرح الحاج الأمين بذلك وسُرَّ به، فلما أصبح في غده نادى أشْرَعُ مُنْذُ ودفع إليه سبعاً وستين مثقالاً إلا ثلثاً ليبلغه للقاضي. وأعطى أشْرَع مُنْذُ ألفَ وَدَع ومائةَ كُوريّة، وقال له: أردتُ منك أن تُبكّر عليّ غداً لنأخذ مني نفقته، ولا تشاور

(١) تاريخ السودان، عبد الرحمن السعدي، وقف على طبعه من غير تغيير نصه السيد هوداس مدرس اللغة العربية بمحروسة بباريس، وشاركه في ذلك تلميذه السيد دولافوس، مدرس اللغات السودانية، نشرت ط/١، سنة ١٨٩٨-١٩٠٠م، مع ترجمة كاملة إلى الفرنسية، بمساعدة أحد طلابهم السيد: (بنوة) ثم أعيد طبعُه بباريس سنة ١٩٨١م، وهذه الطبعة هي التي اعتمدناها، ص (١٦٩-١٧١).

(٢) راجع: الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م، (نموذج بلاد السودان) أحمد الشكري، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، بجامعة محمد الخامس السويسي بالرباط- المغرب، عام ٢٠١٠، ط/١، ص (١٣٣-١٣٥).

(٣) راجع مقدمة ميشيل أبيتبول وما بعدها:
Tombouctou et les Arma: De la conquête marocaine du Soudan nigérien en 1591 à l'hégémonie de l'empire peul du Macina en 1833, Michel Abitbol Éditions G.-P. Maisonneuve et Larose, Paris 1979, Bibliothèque d'Histoire Outre-Mer.

القاضـــي حتى نقبضها إليـــه، فَرَضِيَ بذلك، ثم أصبح وبكّر إليه، ودفع له سبعاً وستّين إلا ثلثاً. ثم أعطاه ألفَ وَدَع ومائة كُوريّة، ثم قال له: إنّ قبض هذا منك فارجع إليَّ غـــداً في مثل هذا الوقت، وذهب به إلى القاضي العاقب، فقال: هذا ممن؟ فقـــال: من الحاج الأمين، فقال: إنّ الذي قبضناه بالأمس كفاه، فتوقف في أخذه، ثم أخذها، فلما أصبح من اليوم الثالث بكر عليه ودفع له ســـبعاً وســـتين إلا ثلثاً، وألف وَدَع[1] ومائة كُوريّة. فقال: على مَن قبضت هـــذا؟ فقال: من الحاج الأمين. فقال: ارْجع إليه وانتهِـــره، ورده بها. فرجع إليه أشْـــرَعَ مُنْذُ بذَهَبه فأخبره بما قال، وركب الحاج الأميـــن إليه وحمله في قلمون بُرنوســـه، وصبّره ولاطفه بالقول، وقال لـــه القاضي: هناك رجال لا يحبـــون أن يزاحمهم أحد في نفقة هذا البناء، وهم يتنافسون في ذلك، ثم قبضه منه بعد إبايته وامتناعه، ونهاه عن العودة إلى مثل ذلك، فرضي له عنه، وقـــد يكون الرجال الذيـــن ذكر أنهم لا يحبون أن يزاحمهم أحد أراد به نفسه»[2].

ويُرجّح إزاء هذا الحدث أن جلَّ ما أُنفق تقريباً في بناء المسجد كان على نفقة الحاج الأمين جدّ بابَ غُورُو، كما نستشف في الحدث أيضاً أسماء علماء تزامنوا نفس الفتـــرة، وتقاربت أعمارهم، مثـــل: أحمد بن أحمد بن عمـــر والد أحمد بابا (وُلد ١٥٢٤م/توفي ١٥٨٦م)، والعاقب بن القاضي محمود بن عمر بـــن محمد أقيت (وُلد ١٥٠٧م/ توفي ١٥٨٥م) عمّ أحمد بابا الشـــهير، وأســـكيا داود، كانوا معاصرين للحاج الأمين كانُوَا جدّ بابَ غُـــورُو. وعليه يكون العلامـــة أحمد بابا مع والد بابَ غُورُو محمد بن الحاج الأمين، متزامنَين.

ثانياً: لمحة عن «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان» (المفقود):

١- كتاب «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان»:

يُعتبر هـــذا الكتاب مصدراً مهمّاً من مصادر تاريخ غرب إفريقيا جنـــوب الصحراء، ورد ذكره لأول مـــرة في كتـــاب تاريخ الفتـــاش، حيث نقل منه جملـــةً من الأحـــداث التاريخيـــة المتعلقة بالباشـــوات والرماة المغاربة، ومـــا يتعلق بحياة الزعيم الإمبراطوري «سُـــونِي علـــي بَير» حكم (١٤٦٤-١٤٩٢م) Sonni Ali Ber، وابنـــه «أبوبكـــر داعُو»، وأخبار كلٍّ من «أســـكيا محمد بن أسكيا داود» Askiya Mouhamed Ben Askiya Daouda و«أســـكيا محمـــد بنكان» Askia Mohammed Bonkan، ومـــا يتعلّق برصـــد وجرد دقيـــق بالأيام والشـــهور لوفيات العالِمَيـــن المذكورَين من أســـرة أقيت، فقد كان «دُرر الحســـان في أخبار بعض ملوك السودان» بالنسبة إلى تاريخ الفتاش مصدراً أصيلاً موثوقاً، اعتمـــده وأحال عليه بكل أمانـــة وصدق، وكانت إحالاتُه وإشاراتُه سبباً لظهوره وانتشاره في تلك الفترة، فهو ضمن مصادره الأصلية التي اعتمدها في نقل بعض معلوماته، وفي تركيب أســـطوريته وحكاياته الشعبية.

ويمكن القول- بناءً على المادة التي نقلها عنه الفتـــاش- إنه كتابٌ معجمـــي تاريخي ينتمي إلى مجموعة من المصنفات ذات التراجم التي اعتنت بتاريخ المنطقة وتراجم الأعلام والشـــخصيات والســـلاطين، كما جرت عليه العادة عند علماء السودان الغربي، أصحاب التراجم والطبقات، مثل

(١) وَدَع: صدفٌ يسمّى الغُوري: cauris كان مستعملاً في إفريقيا السوداء وأنحاء من الهند، المفرد ودعة وجمعها ودعات، وقد ذكر في الفتاش نوعان من الودع المتعامل به في البيع والشراء: الودع المسمّى عندهم كورني: Korni والآخر يسمّى بالودع الأبيض، والودع المراد هنا كان غير الودع الذي تصنع منه أصناف من الأواني. راجع: اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي وملامح التأثير المغربي، مرجع سابق، ص١٩٢.

(٢) تاريخ الفتاش، ص١٢٢.

«دُرر السلوك بذكر الخلفاء وأفاضل الملوك»[١] لأحمد بابا التنبكتي، وكذلك «تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان» لمؤلف مجهول، و«ديوان ملوك سلاطين السودان»، لمؤلف مجهول[٢]. ولقد قرّر المؤرخ الأنثروبولوجي باولو فارياس دي مورايس أن مدينة تنبكت قد شهدت خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي بدايةَ تحوّل فريد من نوعه في التدوين التاريخي، هذا التحول الذي كان يتمثل في بروز جنس أدبي جديد يُعرف بـ«جنس التواريخ». ويُعدُّ كلٌّ من «تاريخ السودان» للسعدي، والذي اكتمل سنة ١٦٥٣م مع تحديث لاحق سنة ١٦٥٦م، و«تاريخ الفتاش» لابن المختار حوالي ١٦٦٤م، و«الملحق التاريخي» المجهول المؤلف ما بين عامي ١٦٥٧م -١٦٦٩م، أبرزَ النصوص المؤسسة لهذا الاتجاه. كما يُحتمل انتماء كتاب «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان» لبابا غُورُو إلى هذا الجنس، رغم فقدانه، مع بقاء الجدل قائماً حول تاريخه، إذ قد يكون سابقاً لهذه الأعمال أو لاحقاً لها[٣].

يرى فارياس أن كتاب «درر الحسان» على الأرجح قد أُلِّف في النصف الأول من القرن السابع عشر، وهو ما يطرح إشكالاً مهماً عقب ذلك، ويتمثل هذا الإشكال: لماذا لم يذكره السعدي في تاريخ السودان رغم أنه أشار إلى مصادره الأخرى؟

ومع إمعان النظر في النص ندرك أن فارياس طرح ثلاث فرضيات لتفسير ذلك:

الأولى: أن السعدي اطّلع على الكتاب ولم يذكره، وقد عُرف أن منهجه كان قائماً على التصريح بالمصادر التي كان ينقل منها، مثل كتب: أحمد بابا، وابن بطوطة، والحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمجهول.

الثانية: أن الكتاب لم يكن متداولاً زمن السعدي، إلا في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وهو احتمال مستبعد، ونظراً لمحدودية المصادر التاريخية الخاصة بالمنطقة في تلك الفترة، يُستبعد أن يتجاهل السعدي مصدراً مهماً بهذا الحجم في التاريخ لو كان متاحاً لديه. كما أن وجود إحالات وإشارات لاحقة إلى هذا الكتاب في مؤلفات أخرى، مثل تاريخ الفتاش والذي انتهى منه عام ١٦٦٤م أو بعده بقليل، تدل على شيوعه وانتشاره في الأوساط العلمية، وهذا الذي يرجح احتمالَ حضوره وانتشاره، لا خفائه أو اندثاره. وهذا يؤكده ما ذكره صاحب الفتاش حين ساق خبراً عن تولية «سني بار بن سني علي»، وأحال إلى هذا الكتاب بقوله: «وهذا بخلاف ما ورد في درر الحسان، فإن فيه أن تولية

(١) يوجد منه نسخة واحدة في معهد أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية بتنبكت، وهو في حالة جيدة إلا أن الخط قد تعرض للرطوبة ما يجعل قراءته صعبة، وقد انتهى سيدي أحمد بابا من تأليفه بتاريخ يوم الأربعاء اثنين من شهر الله المعظم رجب عام ١٠١٤هـ.

(٢) وترجّح الباحثة المغربية زوليخة بنرمضان أن كتاب «ديوان ملوك سلاطين السودان» لم يكن سوى مسوّدة أولية لمشروع تاريخي أوسع حول باشوات تنبكت؛ إذ يبدو أن مؤلفه شرع في تدوينه ثم توقّف عنه نحو عشر سنوات قبل أن يعود إليه من جديد. وعند استئناف العمل، عمد إلى مراجعة المسوّدة الأولى وتنقيحها وترتيب مادتها، مع إضافة الأحداث التي استجدّت خلال فترة التوقف، فخرج النص في صورة أكثر نضجاً واكتمالاً تحت عنوان «تذكرة النسيان». لمزيد من التفصيل راجع: «تذكرة النسيان في أخبار بعض ملوك السودان» لمؤلف مجهول، الباشوية المغربية في الحوض النيجيري الأوسط (٩٩٩-١١٦٤/١٥٩١-١٧٥١) من السرد البيوغرافي إلى التأريخ الحولي، ذة زوليخة بنرمضان، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، ط١/١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م، ص (٣٧-٣٨).

(٣) Intellectual innovation and reinvention of the Sahel: the seventeenth-century Timbuktu chronicles, Paulo F. de Moraes Farias In Shamil Jeppie and Souleymane Bachir Diagne (Eds): The meanings of Timbuktu, Cape Town, South Africa, 2008. p.95.

شـــي بار كانت في زاغ، فانظره»، وتوجيه صاحب الفتاش للمطلع على كتابه بقوله «فانظره»، يعني أن «درر الحســـان» كان متداولاً ومعروفاً في تلك الفترة.

الثالثة: وهي الأقرب إلـــى القبول، أن «درر الحســـان» أُلِّف بعد تاريخ الســـودان، مما يفسر غياب ذكره عند السعدي.

وقد ورد الكتاب في تاريخ الفتاش باسم: «دُرَر الحســـان في أخبار بعض ملوك الســـودان لبابَ غُورُو»، بهذا العنوان الكامل في جميع وروده، إلا مرّة واحدة، بحيث ذكر لفـــظ «جَوَاهِرُ» بدلاً من «دُرَر»، وقد ســـبق التعليق على هذه الإشـــكالية، وفي هذا يقول: «وفي الســـنة الثالثة وألف، جاء القائد منصور بـــن بك من مراكش بمحلة كبيرة، فيها ثلاثـــة آلاف مقاتل وألف خيـــل، قاله بابَ كُـــور بن الحـــاج محمد في «جواهر الحســـان». انتهـــى»[1]. وقد كان الشـــيخ مـــولاي أحمد بن باب بيِّر الأرواني، صاحب «الســـعادة الأبدية في التعريـــف بعلماء تنبكت البهيّـــة» معجباً بالكتاب لدرجة أنه ألّف مصدراً آخر على نمطه ومنواله، ليكون تعويضـــاً عن المفقود، ومن ذلك يقول في مقدمته: «فجمعتُه في مدّة قليلة، فجاء بحمد الله تعالى ومعونته على وفقَ مرادي، وســـمّيتُه باسم الكتاب المفقود، يكون بدلَه: جواهر الحسان في أخبار ملوك السودان، وكان ذلك وأحسنَ منه»[2].

٢- من الذي نقل من «درر الحسان» من الكعتيين؟:

تجدر الإشارة هنا إلى نقطة مهمة: مَن الذي نقل من «درر الحســـان» ممن يحمل لقب «كعت» من الثلاثة الذين تواتر المؤرخون على أن الفتاش كان بمشاركتهم جميعاً؟

وللإجابة عـــن هذا الطرح، فإنـــه يجدر بنا العـــودة إلى نفس التقديرات والفرضيات التي تمّ طرحها فيما يخص معاصـــرةَ بابَ غُورُو للحملة الســـعدية، ومصادفتَه بعودة الفقيـــه أحمد بابا من المغـــرب، وأنه كان وُلد في تلك الفترة، وكان في شـــرخ شبابه، وأنّ وفاته كانت خلال منتصف القرن ١٧ للميلاد، حســـب مـــا ذهب إليه أحمد الشكري كذلك.

بنـــاءً على هذا، فإنه يُســـتبعد أن يأخذ عنه الفع محمـــود كعت الجدّ بن الحاج المتوكل الذي وُلد على أرجح التقديرات عام (٨٧١هـ/١٤٦٦م)، وتوفي عام (١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م) وكان عُمرُه ١٢٥ ســـنة تقريباً، وأن آخر حدث نقله تاريخ الفتاش من «درر الحســـان» كان عـــام ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م، أي بعد الحملة الســـعدية المغربية بثلاث أو أربع سنوات، ومعلوم أنّ الفع محمود كعت الجدّ توفي قبل هذا التاريخ بسنتين، وبهذا يمكن الجزم على أن الفع محمود كعـــت الجدّ لم ينقل عنه، والذي يصحّ قبوله هو أن صاحب «درر الحســـان» التقى بمحمود كعت (الثاني) بن علي بن الحاج المتوكل (حفيـــد الأول)، والذي كان حَيّـــاً عام (٩٩٦هـ/ ١٥٨٧م) في تِنْدِرْمَ، وشَهِد بدايات سقوط مملكة سنغاي، ويظهر أنه متقدم جدّاً، وهذا ينفي كونه أخذ عنه أيضاً، فالامتداد الزمني بين ما شـــهده كعـــت الثاني من بدايات الحملة الســـعدية وبين الأحداث التي يرويهـــا صاحب الدرر يَنفي ذلك، فقد يكـــون أنه التقى بكعت الثاني، على الأرجح. ومثلُه في ذلك مثل السّـــعدي الذي التقى بأحمد بابا التنبكتي عند عودته من المغرب وكان شاباً، فانتهز الفرصة وأخذ عنه علوماً ومعارف كثيرة.

وعلـــى هذا التقدير، فإن الذي أخذ عن «درر الحسان» من الكعتيّين هو محمود كعت (الثالث) الذي عُـــرف بابن المختار، وهو ســـِبْطُ محمود

(١) تاريخ الفتاش، ص١٨٢.

(٢) راجع هامش كتاب: اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الإفريقي وملامح التأثير المغربي، عبد العلي الودغيري، مرجع سابق، ص١٦.

كعت الثاني وسَـمِيُّه، عاش فـي القرن الحادي عشـر الهجري/ السابع عشـر الميلادي، وقد شهد الحملة المغربية السـعدية، وتابع أحداثها بدقة وعناية، وسـجلها في تاريخ الفتاش، ونقل الكثير من أحداث هذه الفترة في «درر الحسان» بإحالات جميلة وإشارات صادقة وأمينة[1].

وتتقاطع مع ما ذهبنا إليه بعض نظرية الأستاذ ماورو نوبيلـي Mauro Nobili في تأليف ما يُعرف بـتاريخ الفتاش؛ وهي دراسـة جديدة، إذ يرى أن طبعة هـوداس ودولافوس الصادرة عام ١٩١٣م ليست سـوى محاكاة نصية أدبية جمعتْ بين حوليّتَين مختلفتَين:

الأولى: حوليات تعود إلى القرن السابع عشر، ألّفهـا راوٍ يُعرف بـ«ابن المختار»، كما سـبق أن اقترح «نحميا ليفتزيون» في دراسـته المنشورة عام ١٩٧١م، الذي يرى أن الحولية المحفوظة في هذه المخطوطات هي عمل تاريخي متماسك كتبه مؤلف واحد، وهو ابن المختار في النصف الثاني من القرن السـابع عشر، وليس نتاج ثلاثة أجيال متعاقبة أو أكثر كمـا قبِل باحثون آخرون. وهذه الحوليات كانت بلا عنوان، كما أنها ناقصة بسبب فقدان عـدد من أوراقها الأولى في النسـختين المخطوطتين المكتشفتين حتى الآن.

الثانية: نـصٌّ مـزوّر يحمل عنـوان «تاريخ الفتاش»، نُسب خطأً إلى العالم محمود كعت من القرن السـادس عشر، بينما هو في الحقيقة من تأليف العالم الفولاني نوح بن الطاهر بن موسى الفلاني في عشرينيات القرن التاسع عشر. وقد أُعيد فيه تشكيل حوليات ابن المختار وصياغتها بصورة جوهرية، لتتحول إلى عمل مسـتقل أُلِّف لخدمة المطالب السياسية لأحمد لوبو، مؤسس الإمارة الفولانية في ماسينا خلال القرن التاسع عشر[2].

لا شـك أن نظريته في ذاتها تثير إشـكالاً منهجياً تاريخياً خطيراً، إذ تسـعى إلى إسقاط نسـبة الكتاب إلى الكعتيّين جملةً وتفصيلاً. ومن ثَمّ؛ يبقى الكتاب بمفرده ملكاً لابن المختار وتصح نسبته إليه، وأن ما يُسند إلى الكعت الكبير ليس إلا عمـلاً مزوّراً سياسـياً وفكرياً. ويظل طرحه بحاجة إلى مزيد من الإبانة والإفصاح عبر النقد والتحليل والشـرح، ولربما الدراسـات القادمة سـوف تتوصل إلى شـيءٍ معقول مـن النتائج المقنعة.

٣- طريقة نقل ابن المختار من درر الحسان:

لقد ثبت بالفعل أن الشـخص الذي ينقل من «الكعتيّين» من «درر الحسـان» هو محمود كعت الثالـث، الذي عُرف بابن المختار، وكانت طريقة نقله- في جميـع ما أوردناه- نقـلاً حرفياً من المصـدر المكتوب من غير واسـطة، فلم يَثبت فـي نقولاته أنه وظف صيغَ الروايات الشـفهية المعروفة كالسـماعة والحكايـة والحديث التي كان يسـتخدمها مع والده وأخواله، وشـيوخه، مثل: «سمعتُه من والدي المختار قنبل رحمه الله، يتحدث بها»، «سمعتُ ممن أثق به يحكيه عن مَن

(١) لمزيد من التفصيل راجع: الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م، (نموذج بلاد السودان) أحمد الشكري، ص (١٣٥-١٣٦)، ولمعرفة مزيد حول تعدد مؤلفي الفتاش، راجع: مقالة للبروفيسور هارون المهدي ميغا بعنوان: من هو مؤلف كتاب تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش؟، منشورة في مجلة قـراءات إفريقية، العدد ٢٤، في موقع المجلة – https://qiraatafrican.com12 نوفمبر/٢٠١٨/١١م، وراجع أيضاً: تاريخ الفتاش، دراسة وتعليق آدم بمبا، ط/١، عام ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، بيروت لبنان، مؤسسة الرسالة ناشرون، ص (٣٧-٤٠).

(٢) لمزيد من التفصيل راجع كتاب:
Critical Source Analysis Towards a New Study of the So-Called Tārīkh al-fattāsh Mauro Nobili and Mohamed Shahid Mathee. African Studies Association, 2015, History in Africa, Volume 42 (2015), pp.37–73.

حضر هنالك يومئذ، فقال إن أسكي لقيهم بثمانية عشر ألف فارس مقاتل» «وحدثني بعض مَن أثق بروايته أن الحاج الأمين كان (كانْوَا) سـأله حين كان في بناء الجامع الكبير»، «ومن ذلك ما رويتُ عن خالي يرويه عن أبيه الفع كعت»، «وحدثني شيخنا محمد ولد كرتم»، «كذا حدثني به الحاج محمد سر الكجالوي». ومثل هذه الصيغ متوفرة جدّاً في تاريخ الفتاش وظفها ابن المختار عن دراية عميقة، لإعطاء عمله التاريخي نوعاً من الأمانة والدقة والثبت.

وغياب صيغ الرواية الشفهية- مع هذا المصدر تحديداً- هو أقوى حجج على الاعتماد المباشر على النص المكتوب، وهذا ما يُميّز «درر الحسان» عن مصادر أخرى اعتمدها ابن المختار شفهياً.

ويُحتمل أن ابن المختار لم يكن على اتصال مباشر ببابَ غُورُ، ربما لصغر سنه حين تأليف «درر الحسان»، ولربّما الظروف السياسية أو الأمنية لم تسمح له بذلك، أو أن البعد الجغرافي كان هو السبب، فاكتفى بالنقل الحرفي من المصدر. فلا شك أن هذه كلها في الاعتبارات وليست من المستبعد، وخاصةً أننا لم نعثر على تواريخ ميلاد ابن المختار بالضبط غير التقديرات المتقاربة التي ذكرها بعض المؤرخين ومنهم آدم بَمبا، حيث قدّر لميلاده تاريخ ١٠٣٠هـ/١٦٢١م وما بعدها[1]، وخاصةً أن بعض المشايخ الذين أحال عليهم بالسماع والحكاية والحديث قد يكون بعضهم في سنّ بابَ غُورو، أو أنهم تزامنوا معاً، وكيف يحيل عليهم بالرواية الشفهية، ويكتفي بالنقل الحرفي فيما يخص صاحب درر الحسان؟، والتاريخ التقريبي الذي ذكره الدكتور آدم بَمبا على سبيل التقدير يؤيد أن ابن المختار في مرحلة ناضجة ومتقدمة تؤهله لمقابلة الشيوخ، حيث نجد الفارق الزمني بين هذا التاريخ وبين آخر حدث نقله في «درر الحسان» قد يصل ٢٧ عاماً، وهذا السنّ يؤهل الشخص للقيام بكل واجباته.

هذا الجدول المقارن يبين طريقة نقل ابن المختار:

نوع المصدر:	صيغة النقل في الفتاش:	المصدر المنقول عنه:
شفهيّ مباشر	سمعته من والدي المختار قنبل رحمه الله، يتحدث بها	والده المختار قنبل
شفهيّ مباشر	حدثني بعض من أثق بروايته أن الحاج الأمين كان (كانو)	شيوخه وأخواله
مكتوب مع ذكر العنوان	ووافق بما ذكره العلامة أبو العباس أحمد بابا في كفاية المحتاج	كفاية المحتاج
مكتوب، نقل حرفيّ مباشر	هكذا نقلتُه من درر الحسان. قاله بابَ كور. هكذا ذكره بابَ كور في درر الحسان.	درر الحسان

يتبين لنا من هذه المقارنة: أن ابن المختار حين ينقل عن «درر الحسان» لا يستخدم أبداً الصيغ الشفهية، بل يلجأ دائماً إلى صيغ الإحالات الخطية المباشرة مع ذكر الاسم وعنوان الكتاب، وهذا يعني أمرين:

أولهما: أنه كان يملك النصّ ويطلع عليه مباشرةً دون وسيط.

ثانيهما: أن غياب الوسيط الشفهي يرجّح قِدَم النسخة التي اعتمدها وأصالتها، الأمر الذي يقوي الثقة بنقوله عن «درر الحسان» مقارنةً بما نقله عبر مصادر شفهية قد تعرضت للاختزال.

المحور الثاني: أثر درر الحسان في سرد تاريخ الفتاش من خلال النقولات:

لقد كادت تختفي الأهمية البالغة لكتاب «درر الحسان في أخبار ملوك السودان» لولا أن تاريخ الفتاش أحال عليه، فكانت إحالاته سبباً لإنقاذه.

(١) بخصوص تاريخ ميلاد ابن المختار المقدر؛ راجع المصدر نفسه، ص٣٩.

أولاً: عرض الأحداث التي نقلها الفتاش من درر الحسان:

وفيما يلي أبرز الأحداث التي نقلها عنه الفتاش، مع ذكر موضوعها وأرقام صفحاتها في تاريخ الفتاش:

الرقم:	الحدث الأول:
الحدث:	ومكث في السلطنة ثلاث سنين، وفي أيامه ظهر النقص بدولتهم وتبيّن فيه القلق والاضطراب، ثم نزل عليه جيوش أمير المؤمنين مولاي أحمد الذهبي، وقدم عليه مملوكه الباشا جودر مع ثلاثة آلاف من الرماة، هذا ما قاله صاحب درر الحسان، بابَ كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا. وقيل أربعة آلاف.
الموضوع:	أسكيا إسحاق وقدوم الباشا جودر.
الصفحة:	تاريخ الفتاش، ص١٤٦.

ويظهر من هذا الخبر عدة أمور: استمرار صاحب درر الحسان في تحديد سنوات حكم الملوك، وتعاطفه مع الغزو السعدي، بدليل انتقاده للنقص والاضطراب الحادث في أواخر أيام أسكيا إسحاق الثاني، ووصف الجيش المغربي بجيوش أمير المؤمنين. كما قدّم إحصاءً لعدد الجيش السعدي قوامه ثلاثة آلاف، بينما نقل صاحب الفتاش عن مصدر آخر أنه كان أربعة آلاف.

كما يثبت أن الفتاش نقل من «درر الحسان» أحداثاً تاريخية طويلة بصفحات متعددة شملت حياة أسكيا إسحاق، وصفاته، وما حدث في عهده من الأزمة والاضطرابات الأمنية، إلى أن جاء الباشا جودر بجنوده. ولا شك أن هذا دليل قاطع على اعتماده عليه وعلى استمرارية نقله عنه في كل مرّة.

الرقم:	الحدث الثاني:
الحدث:	وبعد هروب إسحاق دخل الباشا جودر وجيشُه في وسط كاع (غاو) ومكث فيها خمسة عشر يوما، ثم ارتحلوا في اليوم... من جمادى الآخرة وقصدوا بلدة تنبكت حرسها الله، وقدموا صبيحة الخميس في اليوم الأول من رجب، ومكثوا على ربوة تنبكت شهرا، ثم دخلوا ديار البلد وبنوا القصبة. وفي درر الحسان لبابَ كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا أنهم نزلوا بخارج مدينة تنبكت في الجانب الشرقي صبيحة الخميس غرة رجب عام تسعة وتسعين، وتسعمائة فتلقاهم أعيان البلد بالترحيب، وأطاعوه في البيعة وضيفوه.
الموضوع:	أسكيا محمد كاع (غاو) ودخول الباشا جودر تنبكت.
الصفحة:	تاريخ الفتاش، ص١٥٥.

يبيّنُ لنا هذا الحدثُ: أهمية رواية «درر الحسان» في ذكر تفاصيل بعض الحوادث المهمة كحادثة الغزو السعدي مُحدِّداً بدقة موضع نزول الجيش، وتاريخه بتفصيل دقيق. كما يظهر تعاطف صاحب الدرر مع الغزو بتأكيده على ترحيب أعيان البلد به وإطاعتهم في البيعة. وهذا يناقض ما هو موجود في المصادر السودانية مثل كعت والسعدي، وما جاء عند أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج، بل وما أورده القشتالي مؤرخ الدولة السعدية نفسه في «مناهل الصّفا في مآثر موالينا الشُّرفا».

الرقم:	الحدث الثالث:
الحدث:	وليَ سلطنة سُنِغي سنة تسع وستين من القرن التاسع، ومكث فيها سبعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وخمسة عشر يوما... هكذا نقلته من «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان» تأليف بابَ كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانو... وكان موته في شهر المحرم افتتاح سنة الثامن والتسعين بعد ثمانمائة من الهجرة. انتهى. وفي «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان» أن موت شي عال كان في سنة تسع وتسعين من القرن الثامن فمكث فيها سبعا وعشرين وأربعة أشهر وخمسة عشر يوما... وكان معه ابنه أبو بكر الملقب بشي بارُ في تلك الغزو، وحين وصل الجيش قافلا إلى بَنكي ولوّا بار مكانه في اليوم الثاني من ربيع الآخر، وهذا بخلاف ما في «درر الحسان»، فإن فيه أن تولية شي بارُ كانت في زاغ، فانظُرْه.
الموضوع:	سوني علي بَيْر وتولّيه السلطة.
الصفحة:	تاريخ الفتاش، ص٤٥، ص٥٣.

هنا رغم تطابق المدة الزمنية بين النصَّين المنقولين عن بابَ غُورُو: سبعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر وخمسة عشر يوماً. إلا أن ذكر سنة الوفاة فيه اختلاف، ففي الموضع الأول أشار إلى أن سوني علي توفي عام ٨٩٨هـ، وفي الموضع الثاني أنه توفي سنة ٨٩٩هـ، ولا نعرف على وجه التحديد هل وقع من بابَ غُورُو هذا الارتباك في ذكر تاريخ وفاة «سوني علي»، ونقله صاحب تاريخ الفتاش دون نقد أو تعليق، أو أن هذا الخطأ مرجعه من ناسخ الكتاب، أو من ناشر نص الفتاش؟!

ويتبين لنا مـــن النص أيضاً اختلاف صاحب الفتـــاش مع صاحب «درر الحســـان» في تحديد مكان تولية ســـني بار، فبينما حدده صاحب «درر الحســـان» بأن توليته كانت فـــي مدينة زاغ، رأى صاحب الفتاش أنها كانت في مدينة بنكي.

الرقم:	الحدث الرابع والخامس:
الحدث:	وممن مات في أيامه من العلماء الأعلام الشيخ الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت- رحمه الله-ستة عشر ليلة من رمضان ليلة الجمعة. وقال صاحب «درر الحسان» أنه توفي في اليوم الخامس عشر من رمضان ليلة الجمعة. وعمره ثمانية وثمانون.... وتوفي أخوه الأكبر الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت ليل الجمعة غرة الربيع الآخر عام اثنين وأربعين وتسعمائة في الطاعون المسمّى كف. هكذا في «درر الحسان»، ووافق بما ذكره العلامة أبو العباس أحمد بابا في كفاية المحتاج.
الموضوع:	وفيات علماء أسرة أقيت.
الصفحة:	تاريخ الفتاش، ص٨٨.

يشير الفتاش إلى وفيات العالِمَين المذكورَين من أســـرة أقيت، وقد نقلهما من «درر الحسان» ثـــم قارنهما بما جاء في كفايـــة المحتاج لأحمد بابـــا، مما يُظهر مدى التطابـــق والتوافق. ويفهم من مقارنته أن كتاب كفايـــة المحتاج كان بحوزة ابن المختار.

الرقم:	الحدث السادس:
الحدث:	ثم قام أسكي محمد بان بن أسكي داوود على أخيه الحاج فعزله. وتولى السلطنة في المحرم عام خمسة وتسعين وتسعمائة. ونفى الحاج إلى تندبي بعد ضعفه بعلة لازمة. فما لبث بعد عزله فمات. ومكث أسكي محمد بان في السلطنة سنةً وأربعة أشهر وثمانية أيام، وكانت في أيامه غلاءً وقحط. وتوفي يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى عام ستٍ وتسعين وتسعمائة في محلته بالبيداء بقرب تندبي قاصداً إلى تُنبكت، بعد أن اعتقد للمسلمين الشر بسبب حبّهم لأخيه بلَمع صادق. وكفى الله المسلمين شرّه، نقلتُ هذا كله من «درر الحسان»، من عزل أسكي الحاج وطلوع محمد بان إلى وفاته.
الموضوع:	أسكيا الحاج محمد بن أسكيا داود وأسكيا بان.
الصفحة:	تاريخ الفتاش، ص ١٢٥-١٢٦.

يظهر للمتأمل في هذا النقل عدة أمور:

■ استمرار الإفادة الواضحة لصاحب الفتاش من كتاب «درر الحســـان» في نقـــل تواريخ تولية وعزل الملوك ووفاتهم بدقة.

■ نقله بعضَ الأخبـــار الأخرى مثل الصراع على العرش بين أبناء السلطة الحاكمة.

وعلى هذا يمكـــن القول بأن صاحب الفتاش اعتمـــد كثيراً على «درر الحســـان» في كثير من أخبـــاره دون أن يحـــدد هذه الأخبـــار بوضوح، بدليـــل قوله في موضعين «نقلتُ هذا كلَّه من درر الحســـان»، وهذا التصريح كان يسبقه الكثير من الأخبار ويلحق به الكثير من الأخبار أيضاً.

الرقم:	الحدث السابع:
الحدث:	وفي سنة ثالث وألف جاء القائد منصور بن بك من مراكش بمحلة كبيرة، فيها ثلاثة آلاف مقاتل وألف خيل. قاله بابَ كور بن الحاج محمد في «جواهر الحسان». انتهى.
الموضوع:	قدوم القائد منصور بك.
الصفحة:	تاريخ الفتاش، ص١٨٢.

وهـــذا آخر حـــدثٍ نقله الفتـــاش من «درر الحسان».

ثانياً: مقارنة نقولات الفتاش بما ورد في مصادر أخرى:

قبل الخوض في تحليل بعض هذه الأحداث، ومقارنتها بما أوردته المصـــادر الموازية، تجدر الإشارة إلى جملة من الاعتبارات المنهجية التي تؤطر هذه المقارنة وتضبط نتائجها:

أولاً: إن المصـــادر التـــي ســـتجري معهـــا المقارنة- وهي تاريخ السودان للسعدي، وتذكرة النســـيان لمؤلف مجهول، وتاريخ الدولة السعدية التكمدارتيـــة، لمؤلـــف مجهـــول - كلها مصادر معاصرة لـ«درر الحسان» أو لاحقة له بقليل.

ثانياً: إن «درر الحســـان» لا يصلنـــا إلا عبر وســـيط واحد وهو تاريخ الفتـــاش، ما يعني أن المقارنة ستجري في الحقيقة بين ما احتفظ به ابن المختار من النص وبين بقية المصادر. وعليه يكون في الاعتبـــار أن النقل قد يختصر أو يُغفل معطيات كانت في الأصل.

ثالثاً: سنراعي في المقارنة جملة من المستويات الآتية: الاتفاق التام، والاتفاق مع الإضافة، والاختلاف الجزئي، والغياب الكلّي.

وانطلاقاً من هذه الاعتبارات، نعرض بعض الأحداث التي مرت بنا مع مقارنتها بالنصوص الموازية في المصادر الأخرى:

الحدث الأول: قدوم جودر باشا: نص تاريخ الفتاش الناقل عن درر الحسان:

«ومكث في السلطنة ثلاث سنين، وفي أيامه ظهر النقص بدولتهم وتبيّن فيه القلق والاضطراب، ثم نزل عليه جيوش أمير المؤمنين مولاي أحمد الذهبي، وقدم عليه مملوكه الباشا جودر مع ثلاثة آلاف من الرماة، هذا ما قاله صاحب درر الحسان، بابَ كُور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانُوا. وقيل أربعة آلاف».

- تاريخ السودان للسعدي: ونصه:

«وفي المقابل في شهر المحرم الحرام فاتح عام التاسع والتسعين بعث (مولاي أحمد المنصور الذهبي) المحلة الكبيرة إلى سنغاي لقتالهم، فيها ثلاثة آلاف رامياً ما بين أصحاب الخيل والرجل، ومعهم من الأتباع ضعفها وأجناس من الصنّاع والأطباء وغيرها، وجعل عليها الباشا ومعه نحو عشر من القيادة»[1].

- تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول: ونصه:

«فبعث (مولاي أحمد المنصور الذهبي) المحلة تسعة وتسعين إلى سنغي، فيها ثلاثة آلاف رامياً، بين خيل ورجل، ومعهم من الأتباع ضعفهم، فيها كل صنف من الصنّاع والأطباء وغيرهما، وجعل عليها الباشا جودر ومعه عشرة قيادة»[2].

- تذكرة النسيان: ونصه:

«جودر، وهو فتى قصير أزرق، وهو أول باشا من مراكش إلى سنْغي، طلوعه في العام التاسع وتسعون، ومدة سلطنته تسعة أشهر، من المحرم إلى الشوال السادس وعشرين منه، ثم عُزل. وفي مدته تحرك إلى سغي وقاتل مع أسكيا إسحاق بن أسكيا داوود وكسر جيشه طرفة عين، ثم جاء تنبكت ومكث في رحبة من جهة القبلة، هي موضع يسمى جودر كَنْغُني، ومدة مكثه فيه نحوٌ من شهرين أو ثلاثة أشهر، ثم دخل في البلد وبنى هذه القصبة، ثم جاء الباشا محمود بن زرقون، جاء من مراكش باشا وعزله»[3].

نموذج جدول تطبيقي:

المعطيات	درر الحسان عبر الفتاش:	تاريخ السودان:	تاريخ الدولة السعدية:	تذكرة النسيان:
تاريخ الحملة	٩٩٩هـ	محرم ٩٩٩هـ	٩٩٩هـ	٩٩٩هـ
عدد الرماة	٣٠٠٠	+٣٠٠٠ أتباع ضعفها	+٣٠٠٠ أتباع ضعفها	+٣٠٠٠ أتباع ضعفها
قائد الحملة	جودر باشا	جودر باشا	جودر باشا	جودر باشا
طبيعة الجيش	رماة وخيل	رماة رجالة وخيل	رماة رجالة وخيل	-
الإشارة إلى المصدر	صريحة (بابَ غُورُو)	ضمنية (صيغ ثقة)	ضمنية (صيغ ثقة)	

يلاحظ في الجدول ما يأتي:

أ- **اتفاق تام:** حول عدد الرماة (٣٠٠٠) بين المصادر الأربعة، وهذا أكيد يرجح على أن المصادر كانت متفقة فيما بينها في نقل العدد بالذات.

ب- **اختلاف جزئي:** السعدي وصاحب الدولة السعدية يضيفان «أتباع ضعفها»، وهي غائبة

(١) تاريخ السودان، ص٢٣٨.

(٢) تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، لمؤلف مجهول، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، منشورات عيون المقالات، ط/١، ١٩٩٤م، مطبعة تنميل بمراكش، ص١٠٦.

(٣) تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، مؤلف مجهول، تحقيق هوادس وديلافوس، طبعة باريس ١٨٨٩م. ص٢.

عند الفتـــاش تماماً، وربما يعنـــي ذلك أن «درر الحســـان» قد اختصر الحـــدث، من أجل إعطاء تقدير معيّن بالضبط.

ج- غياب الحدث في تذكرة النسيان: لا يذكر الحدث بهذه التفاصيل التي وردت في المصدرين.

وبالنســـبة لرواية السعدي والمؤرخ المجهول المغربي لا نـــدري مَنْ منهما ينقـــل عن الآخر؟ وعلى كل حال، فإن مؤرخ الدولة الســـعدية يبدو أنه أقدم من الســـعدي حسب الأحداث التي أرخ لها، وخاصةً تاريخ المغرب على عهد السعديين، الذي ذكر أنه اســـتقى معلوماته من شـــخصيات عاشت الأحداثَ وشـــاركت فيها، وأخبار الدولة الوطاسية بالمغرب وهي قبل السعديين، ما يعني أنه عايـــش الأخبار أو عاينها عن قرب، وقد ذكر أنه كان يأخذ أخبارَ فتح السودان الغربي من عند رجل مجهول، فيقول: «وحدّثني رجل من القوم»، ويصعب أن يكون الســـعدي هو ذلك الرجل، كما يظهر أن الإفراني صاحـــب: «نزهة الحادي في أخبـــار ملوك الحادي» نقل من كتاب تاريخ الدول السعدية.

الحدث الثالث: سوني علي بَيْر وتولّيه السلطة:

- نص تاريخ الفتاش الناقل عن درر الحسان:

«ولِيَ سلطنة سُـــنغي سنة تسع وستين من القرن التاســـع، ومكث فيها ســـبعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر وخمسة عشر يوماً... هكذا نقلته من «درر الحسان في أخبار بعض ملوك الســـودان» تأليف بابَ كُور بـــن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانْو... وكان موته في شـــهر المحرم افتتاح ســـنة الثامن والتســـعين بعد ثمانمائة من الهجرة. انتهى. وفي «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان» أن موت شي عال كان في ســـنة تسع وتســـعين من القرن الثامن سبعاً وعشـــرين وأربعة أشهر وخمسة عشـــر يوماً... وكان معه ابنه أبو بكر الملقب بشـــي بارُ في تلك الغزو، وحين وصل الجيش قافلاً إلى بَنكي ولَّوْا بار مكانَه في اليوم الثاني من ربيـــع الآخر، وهذا بخـــلاف ما في «درر الحسان»، فإن فيه أن تولية شي بارُ كانت في زاغ، فانْظُرْه».

- تاريخ السودان للسعدي: ونصه:

«ودخل في الســـلطنة ســـنة تســـع وســـتين وثمانمائة، وَرُوِيَ عن أبي البركات ولي الله تعالى الفقيـــه القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت أنه ســـبق مولده ولايتَه بسنة، نعم وقد رأيت في كتاب الذيل أنه وُلد رحمه الله ســـنة ثمان وستين وثمانمائـــة، ومكث في السلطنة إما سبعاً وعشرين أو ثمانياً وعشرين سنة»[1].

نموذج جدول تطبيقي:

المعطى:	درر الحسان عبر الفتاش:	تاريخ السودان للسعدي:
سنة تولي السلطة	٨٦٩هـ	٨٦٩هـ
مدة الحكم	٢٧ سنة، و٤ أشهر، و١٥ يوماً	٢٧ أو ٢٨ سنة
طبيعة الرواية	نقل مكتوب مباشر	شفهية عن الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت
سنة الوفاة	محرم ٨٩٨هـ- ٨٩٩هـ	٨٩٧هـ
مكان تولية شي بار	بين بنكي وزاغ	-
تاريخ تولية شي بار	اليوم الثاني من ربيع الآخر	-

إن المتأمـــل في هذه الأحـــداث التي دوّنها ابن الفتاش ونقل بعضها، سوف يجد فيها أموراً متداخلـــة بعضها مع بعض، مما يدعو إلى إعمال الفكر، ومنه ما يأتي:

١- تعدد الرواية داخل الفتاش نفسه:

إن تعـــدّد الروايـــة داخل الفتـــاش إزاء هذه الأحداث بالـــذات، وعدم اعتماد ابـــن المختار

(١) تاريخ السودان، ص٦٤.

وترجيحه للروايــة الأكثر شــهرةً وقبولاً جعلت الأمورَ تزداد أكثر تعقيــداً، فهو لا يكتفي برواية واحــدة، بل يورد روايتيــن متعارضتين في نفس الحدث، فنجد روايته هو أولاً حول (وفاة ســني علــي بير ٨٩٨هـ، وتولي شــي بار في بنكي)، ثم رواية «درر الحســان» حول (وفاة سني علي بير ٨٩٩هـ، وتولية بار فــي زاغ)، ثم ينبه بالصراحة على الخلاف بقوله: «فانظر»، ولا شك أن الكلمة هــذه وحدها حجة دامغة علــى أن ابن المختار حيــن كان يؤلف كتابــه كان بجانبه نص مكتوب آخر يطلع عليه مــن حينٍ لآخر، فلم يكتف فقط بالرواية الشفهية.

٢- وقوع الاختلافات حول سنة الوفاة بين ثلاثة مصادر محلية:

أ- الفتاش: روايته: ٨٩٨ هـ.

ب- درر الحسان، روايته: ٨٩٩ هـ.

ج- السعدي، روايته: ٨٩٧ هـ.

ومن الأرجح أن السعدي اعتمد رواية شفهية متأخرة عن القاضي محمود، بينما «درر الحسان» يعتمد على تسجيل معاصر للحدث، ونقل روايته صاحب الفتاش. ومهما يكــن من أمر فالتواريخ كلها متقاربة، والفارق الزمني بينها لا يكاد يتجاوز ســنة أو ســنتين، وكلها في القرن التاسع وليس القــرن الثامن، الوارد فــي المدونات؛ وذلك إذا نظرنا إلى معنى مفهوم القرن.

٣- وقوع اختلاف في مكان تولية شي بار:

أ- ذهب الفتاش إلى أن توليته كانت في بَنْكَيْ.

ب- وذهب درر الحســان إلى أنها كانت في زَاغ.

ولا شــك أن اختيار «درر الحسان» وترجيحه «زاغ» دليــل على أنه يملك معلومات مســتقلة لا يشــاركها فيها الفتاش نفسه. وكون ابن المختار نبّه إلى التعارض دليل إلــى وعيه النقدي بتعدد الروايات وتفاوتها.

ثالثاً: أثر درر الحسان في السرد التاريخي للفتاش من خلال نقولاته:

تتجلى الأهمية التاريخية لـ«درر الحسان» لدى تاريخ الفتاش في قيمة المعلومات التي ينقلها عن مملكة سنغاي وأخبار باشوات تنبكت. وتزداد تلك الأهمية في اعتبار الكتاب مرجعاً أساسياً لأغلب أحــداث تلك الفترة، مع الإشــارة إلــى أن بقية المصادر المعاصرة «تاريخ الســودان»، و«تذكرة النســيان»، و«ديوان ملوك الســودان»، و«وفيات قاسم بن سليمان» لم تذكر «درر الحسان» صراحةً كمرجع لها. باســتثناء الشــطحات العابرة التي أوردها صاحب التذكرة. كما يُلاحظ أن السعدي اكتفى في نقله بعبــارات الثقة الروائية «ما روى ثقات عن ثقات» «ما رويتُه عن والدي رحمه الله» «رأيتُ بخــط بعض المعتبرين من الطلبة» «نقلت من خط والــدي رحمه الله تعالــى»[١] دون ذكر المصادر بأسمائها، وإنّ فعل ذلك فلم يكن بشكل مســتمر، بينما أحال الفتاش بأمانة وصدق إلى كل مصادره بذكر أسمائها وعناوينها. ولا يُستبعد أن يكون للسعدي صلةٌ بأسرة بابَ غُورُو، إذ أورد ترجمةً تضمنتْ وفاةَ أحدِ إخــوان «بابَ غُورُو». وتلك الترجمة كفيلة أن تدفعنا إلى القول من غير جزم بأن الســعدي كان له صلة صميمة بأســرة «بــابَ غُورُو»، وأنهما تزامنا، كما لا يُســتبعد أن يأخذ منه السعدي، ويمكن قراءة ذلك: «وفي تلك السنة (١٠٠٦هـ/ ١٦٥٦م) توفي عبد الرحمن بن الحاج محمد بن الأمين كانْوَا، وصلّى عليه ضحوة في الصحراء القاضي عبــد الرحمن، ودفن في جوار بيته في مقابر سنكري- رحمه الله»[٢].

وبنــاءً علــى ذلك؛ يظهــر لنــا أن أثر «درر الحســان» لا يقتصر على كونه مصدراً فقط لما

(١) تاريخ السودان، ص (٤٧-٥١-٥٢).

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٢.

ينقله عن تاريخ الفتاش، بل يتجاوز إلى التأثير في بنية السرد لدى الفتاش وطريقة تشكيله؛ إذ كان حضوره بين يدي ابن المختار مساعداً في ضبط الرواية وتصحيحها ومقارنتها بما هو معروف. ويزداد أهميةً في كونه عالماً محليّاً عاش الأحداث وسجّلها، أو عاينها عن قرب، وهذا شيء استثنائي. وعليه نسعى إلى بيان الأثر ودوره فيما يأتي:

١- الأثر في ضبط المعلومة التاريخية:

كشفت المقارنة المصدرية أن «درر الحسان» أسهم في تدقيق جملة من المعطيات التي كانت مجملةً أو مضطربة في الروايات الأخرى. ففي حدث سوني علي بَيْر مثلاً، جاءت رواية السعدي مترددةً بين «سبع وعشرين أو ثمان وعشرين» سنةً لمدة حكمه، في حين أثبت «درر الحسان» عبر الفتاش المدة بدقة متناهية: «سبعاً وعشرين وأربعة أشهر وخمسة عشر يوماً»، وهذا التفصيل عن تسجيل مكتوب معاصر للحدث أو قريب منه، مما يُرجّح أن صاحبه بابَ غُورُ كان يعتمد على وثائق أو سجلات وصلتْ إليه مباشرةً، ولم تصل إلى غيره من المدوّنين. وهو ما يتوافق مع ما ذهب إليه الباحث أحمد الشكري من أن أسرة بابَ غُورُو كانت من الأسر الأرستقراطية التي تحظى بمكانة خاصة لدى باشوات تنبكت، وهو ما كان يُتيح لصاحبها الوصول إلى معلومات لم تكن في متناول سواه.

٢- الأثر في تعديل بنية السرد وتصحيحه:

يتمثّل الأثر الأبرز للتصحيح لـ«درر الحسان» في الفتاش في أن ابن المختار لم يكتفِ بالنقل عنه بقدر ما اعتمد عليه واتخذه آلة للمراجعة النقدية لما يعلمه أو يرويه من مصادر أخرى، ويتجلى ذلك في موضعين بارزين:

الموضع الأول: في حدث وفاة سوني علي بَيْر، حين أورد ابن المختار روايتَه أولاً ثم أعقبها برواية «درر الحسان» المخالفة لها في سنة الوفاة، ونبّه على التعارض بقوله: «فانظُره». وهي عبارة نادرة في منهج الفتاش تكشف عن وعي نقدي حقيقي بتعدد الروايات وتفاوتها، وتُشير إلى أن ابن المختار كان يُقدّر «درر الحسان» تقديراً يجعله يُدخله في حوار مفتوح مع رواياته الأخرى بدلاً من إقصائه أو تجاهله.

الموضع الثاني: في مسألة مكان تولية شي بارُ خليفةً لأبيه؛ إذ أثبت الفتاش في روايته الأولى أن التولية كانت في «بَنكي»، ثم نقل عن «درر الحسان» أنها كانت في «زاغ»، مشيراً إلى الخلاف دون حسم. وهو موقف منهجي أمين يُقدّم المعلومتين للقارئ ويتركه يحكم، وهو أرقى من أن يُعدّ مجرد تردد، إذ يكشف عن منهجية علمية تُقرّ بتعدد الروايات دون الإلغاء المتعسف لأيٍّ منها.

٣- الأثر في توثيق ما أغفلتْه المصادر الموازية:

يُلاحظ أن «درر الحسان» انفرد بمعطيات لا توجد في تاريخ السودان للسعدي ولا في تذكرة النسيان؛ ومن أبرزها التفاصيل المتعلقة بالجانب الجغرافي لنزول جودر باشا في تنبكت «الجانب الشرقي»، وتفاصيل استقبال أعيان المدينة له، وبعض المعطيات الدقيقة المتعلقة بأحداث مملكة سنغاي. وهذا الانفراد هو أقوى دليل يدفعنا إلى اعتبار «درر الحسان» مصدراً أوليّاً يحمل معلومات مستقلة لم تصل إلى بقية المدوّنين. وفي هذا السياق تحديداً تبرز أهمية أخرى تتمثل في أن المجتمعات العلمية المحلية كانت عُقداً في شبكة السلطة الموزعة، إذ إن بابَ غُورُو بحكم انتمائه إلى أسرة علمية راسخة الجذور في تنبكت كان يحتل موقعاً معرفياً فريداً يُمكّنه من تسجيل ما لا يملك غيره تسجيله، ولقد عبّر عن ذلك نحميا ليفتزيون: Nehemia Levtzion عندما قال بأن الحكام قد وجدوا في

العلماء حلفاء مفيدين؛ إذ أضفوا على سلطتهم بُعداً روحياً، وأسهموا في تعزيز هيبتهم، ولاسيما في مجتمعات كانت الشرعية السياسية فيها تقوم على مزيج من القوة العسكرية، والنسب، والدين التقليدي. ومن ثَمّ؛ استُوعِبَ العلماء داخل البلاط، وحصلوا على الرعاية والحماية، مقابل دعمهم المعنوي للسلطة[1].

٤- الأثر في منهج النقل عند ابن المختار:

أسهم «درر الحسان» أيضاً في تشكيل منهج ابن المختار في النقل، فحين يعتمد على مصادر شفهية يلجأ إلى صيغ التحمّل المعروفة كـ«سمعته من والدي» و«حدثني»، أما حين ينقل عن «درر الحسان» فيستخدم صيغاً مغايرة تماماً تدل على الاعتماد المباشر على النص المكتوب، كـ«هكذا نقلتُه من درر الحسان» و«قاله صاحب درر الحسان». وقد بلغ من تأثير هذا المصدر في منهجه أنه يُصرّح في أغلب الأحيان بعنوانه الكامل ومؤلفه معاً، وهو ما لا يفعله مع كثير من مصادره الأخرى. ولا يُستبعد في هذا السياق أن يكون ابن المختار قد اكتسب هذه الدقة المنهجية في التعامل مع المصادر المكتوبة جزئياً من خلال احتكاكه بـ«درر الحسان» نفسه، الذي يبدو أنه كان نموذجاً في الأمانة التوثيقية.

٥- الأثر في علاقة الفتاش بالمصادر الموازية:

تكشف المقارنة بين نقولات الفتاش عن «درر الحسان» وما أورده السعدي في تاريخ السودان وما جاء في تذكرة النسيان وتاريخ الدولة السعدية، أن ثمة تقاطعات في المادة التاريخية لا تُفسّر بسهولة. وبدلاً من الاكتفاء بافتراض مصدر مشترك أو نقل بعضها عن بعض، يُمكن طرح فرضية أرسخ، وهي أن «درر الحسان» كان في الواقع المرجع المشترك الذي اغترفت منه هذه المصادر أو تقاطعت معه، لا لأنها نقلت عنه مباشرة بالضرورة، بل لأن صاحبه كان شاهداً على أحداث وصلت إليه بطرق متعددة وسجّلها بدقة تجعل روايته الأكثر تمثيلاً للواقع. ويُعزز هذه الفرضية أن السعدي- الذي كثيراً ما يُحيل إلى مصادر دون ذكر أسمائها- كان على الأرجح يعرف «درر الحسان» أو يعرف أسرة بابَ غُورُو، بدليل ما أورده من ترجمة عابرة لأحد إخوانه. وفي كل الأحوال يبقى «درر الحسان»- بحكم دقته وتفصيله وانفراده ببعض المعطيات- في موضع المصدر الأصل لا الفرع.

المحور الثالث: ظروف فقدان الكتاب وفرضيات استعادته:

أولاً: ظروف فقدان الكتاب:

ولعل أبلغ ما يلقي الضوء على ملابسات فقدان «درر الحسان» تلك الشهادة الحية التي أفضى بها إلينا الأستاذ «عبد القادر ماما حيدرة»، مدير منظمة SAVAMA لحفظ المخطوطات في مالي، وهو من أوثق الشهود على تاريخ المخطوطات في المنطقة وأعمقهم صلة بعائلاتها الحاضنة. فقد روى أنه في حدود عامَي (١٩٦٦-١٩٦٧م) عقدت اليونسكو مؤتمراً في تنبكت لحفظ التراث الإفريقي، واختيرت المدينة لِما تمثّله من مركزٍ بارز للإرث الفكري في غرب إفريقيا. ومن أبرز نتائج المؤتمر إنشاء مستودع للمخطوطات، تُوِّج لاحقاً بتأسيس مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث سنة ١٩٧٣م، الذي أصبح عام ٢٠٠١م معهد أحمد بابا للدراسات والبحوث الإسلامية العليا، وكان المؤتمر سببَ اهتمام كثير من الباحثين والمؤرخين بالتراث الإفريقي في مرحلة ما بعد الاستعمار، إذ

(١) راجع كتاب:
Islam in West Africa: Religion, Society and Politics to 1800: Nehemia Levtzion: This edition first published in 2017, Routledge Library Editions: International Islam, Volume 3, pp.208-216.

اتجهوا- إلى جانب دراسة التراث الشفهي- إلى تحقيق المصادر المكتوبة، ولاسيما حوليّتَي تاريخ السودان وتاريخ الفتاش، اللتين تؤرّخان لغرب إفريقيا منذ القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن السابع عشر.

ومن خلال هذا المؤتمر، أفضى بعض العلماء الحاضرين إلى المسؤولين أن ثمة عالماً وفقيهاً يحوز نسخة فريدة جيدة من كتاب «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان»، مؤكدين أن هذا الكتاب أسبق زمناً من تاريخ الفتاش، والدليل على ذلك أن الفتاش نفسه ينقل عنه ويُحيل إليه. وحين أُرسل إلى صاحب الكتاب مطالَباً بتسليمه رفض رفضاً قاطعاً، فما كان من السلطات إلا أن أوفدت رجال الدرك فاعتُقل وسُجن. وحين أُطلق سراحه آثر أن يحمل كل ما يملك من كتب ويرتحل من تنبكت باتجاه نيامي عاصمة النيجر، حيث أقام هو وذريته حتى وافته المنية، ولا يزال بعض أحفاده مقيمين في نيامي إلى اليوم.

وهذه الحكاية هي التي دفعت بالذات الأستاذ عبد القادر ماما حيدرة نفسه إلى البحث عن الكتاب، وقد تحوّلت لديه من حكاية متداولة إلى يقين علمي حين زار معهد الأبحاث في نيامي IRSH عام ١٩٨٧م، وعمل تحت إشراف الشيخ جبريل أبوبكر الذي كان مديراً في تلك الفترة، فأخذ يتصفح سجلات المخطوطات المحفوظة فيه حتى وقعت عيناه على العنوان المنشود: «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان لبابَ غُورُو». وحين طلب الكتاب أُخرج إليه، فوجده يشبه تاريخ الفتاش في حجمه وهيئته غير أنه أقدم منه عهداً، فتأكد أنه الكتاب المقصود بعينه. ثم أعاده إلى المكتبة وعاد إلى مالي وفي نفسه أمل العودة إليه بإذن الله تعالى.

وفي حدود عام ٢٠١٥م، عاد الأستاذ عبد القادر ماما حيدرة إلى المعهد حاملاً في صدره من الطموح ما يفوق الأول، وفتح السجل من جديد واستخرج الرقم واستدعى الكتاب، فجاء الجواب بأن المخطوطات اختلط بعضها ببعض وتعذّر إيجاده، فانكسر أمله في الكشف عن كنزٍ كاد أن يعود إلى النور[1].

والمتأمل في هذه الحكاية يدرك أنها تكتسب شهادة مهمة ذات استثنائية يجب اعتبارها، **لأسباب عدة:**

١- احتمال فرضية وجود الكتاب في النيجر، تتحول إلى شهادة عيان موثوقة، صادرة عن شخصية علمية أكاديمية من أعلى درجات المصداقية في عالم المخطوطات الإفريقية.

٢- انتقال الكتاب من تنبكت إلى نيامي، مرتبط بظروف سياسية موثقة في حقبة ما بعد الاستقلال، ويستحق تتبع المؤسسات المعنية بالتراث.

٣- إن وجود رقم تصنيف للكتاب في سجلات معهد الأبحاث بنيامي، والذي رآه الأستاذ ماما حيدرة بأم عينيه عام ١٩٨٧م، يُثبت أن الكتاب دخل دائرة التوثيق الرسمي ولم يَضِعْ كلياً بَعْدُ، وربما اختلط مع بعض المجاميع، وهذا يستدعي أيضاً إعادة فهرسة المخطوطات في المعهد المذكور مرّةً أخرى.

ثانياً: التوقعات حول استعادة الكتاب المفقود:

تجدر الإشارة هنا إلى أن ما توصّلت إليه من مراجعة فهرسة معهد أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية بتنبكت، ومِنْ تواصلي مع

(١) مقابلة عبر التواصل الاجتماعي (الواتساب) مع الأستاذ والشيخ عبد القادر ماما حيدرة، مدير منظمة سافاما: SAVAMA- لحفظ المخطوطات في مالي، ٢٠٢٥/٠٦/١٨م.

بعض كبار الباحثين الماليين دون ما يُثبت وجود الكتاب، لا يعني بالضرورة أن الكتاب ضاع وفُقد نهائياً، بل يعني ذلك أن الجهود لا تزال في مرحلة بدائية، بل يعني أنها تقليدية، تتطلب منا تجاوز هذه المرحلة إلى مراحل متطورة. ولأن شهادة الأستاذ ماما حيدرة التي تُثبت رؤيته للكتاب بعينه في معهد الأبحاث بنيامي عام ١٩٨٧م تظل- هي الأخرى- المؤشرَ الأكثر موثوقية والأجدر بالمتابعة.

وبناءً على مجمل الشهادة والمعطيات المتاحة، يمكن طرح جملة من المقترحات الأولية:

١- اختلاط الكتاب مع بعض المجاميع:

من المرجح أن الكتاب لا يزال موجوداً في معهد الأبحاث بنيامي IRSH، لكنه مدفون وسط مجاميع مخطوطة غير مفهرسة أو سيئة الفهرسة، بدليل ما أفاد به موظفو المعهد عام ٢٠١٥م الأستاذ ماما حيدرة من أن المخطوطات اختلط بعضها مع بعض.

٢- الانتقال إلى ملكية خاصة:

لا يُستبعد أن يكون الكتاب قد خرج من المعهد إلى ملكية خاصة، سواءٌ عن طريق الإعارة غير المُوثّقة أو عبر انتقاله إلى أحفاد صاحبه المقيمين في نيامي، الذين أشار إليهم الأستاذ ماما حيدرة، وقد يحوزونه دون علم أحد بقيمته التاريخية، والذين لا نعرف عنهم شيئاً.

٣- ضياع أجزاء منه:

في أغلب الظن أن الكتاب قد تعرض لتلف جزئي أو فقدان بعض كراريسه، وهو ما حال دون الاطلاع عليه ضمن المخطوطات المتاحة.

ثالثاً: فرضيات البحث عنه:

١- التواصل المباشر مع أحفاد صاحب الكتاب في نيامي:

قد يفيد التواصل مع أحفاده في نيامي، ويأتي بنتيجة عن طريق شبكة العلماء والباحثين الماليين والنيجريين عما إذا كانوا يحوزون شيئاً من الكتب التي جاء بها جدّهم من تنبكت، بما فيها «درر الحسان».

ولكن تجدر الإشارة إلى أننا بذلنا كل ما في وسعنا ولم نتوصل إلى شيء فيما يخص التعرف على أحفاد صاحب الكتاب، وما زلنا ننتظر فرصاً أخرى تجمعنا مع الأستاذ ماما حيدرة للقيام بهذه المهمة لعلّنا نعثر على شيءٍ يثلج صدورنا.

٢- إعادة البحث الميداني في معهد الأبحاث بنيامي IRSH:

ينبغي إعادة البحث بشكل منظم قائم على منهج سليم، وذلك بالتنسيق المباشر مع إدارة المعهد للحصول على إذن بمراجعة المخطوطات غير المفهرسة أو المفهرسة فهرسة ناقصة، وإشراك الأستاذ ماما حيدرة في هذه الجولة بحكم أنه رأى الكتاب وتعامل معه.

٣- التوثيق الرقمي:

وقد يكون دعم المبادرات العلمية الرامية إلى حفظ المخطوطات ورقمنتها، ومنها مشروع رقمنة مخطوطات معهد الأبحاث في نيامي، طريقاً غير مباشر للعثور على الكتاب، لأن عمليات الرقمنة تستلزم مراجعة يدوية لكل مخطوطة، وهو ما قد يُفضي إلى الكشف عنه بصورة عرضية كما حدث مع كثير من المخطوطات النادرة في تجارب مماثلة. وقد تبين لي من خلال تواصلي مع الدكتور سالو الحسن[1]، المختص بالمخطوطات في معهد الأبحاث بنيامي وجودُ كتاب مسجل برقم (٢٤٦٣) تحت عنوان: «كتاب في التاريخ، وقيل

(١) أحد العاملين على المخطوطات العربية العجمية في النيجر، والمهتمين بالتراث المخطوط في غرب إفريقيا، وهو خبير وموظف بمعهد الأبحاث.

إنه الدرر الحســـان في أخبار ملوك السودان»، غيـــر أن عمليات الرقمنـــة الجارية حالت دون الاطلاع عليه في الوقـــت الراهن، وإذا ما تأكد وجوده فإن ذلك سيُســـقط فرضيـــات الفقدان النهائي ويفتح باباً آخر جديداً في البحث.

وعليه؛ فإن محدودية الوقت تقتضي المضي فـــي الكتابة اســـتناداً إلى المعطيـــات المتاحة حاليـــاً، في انتظـــار ما قد تســـفر عنه أعمال الفهرسة والرقمنة.

الخاتمة:

أثبتت هذه الدراســـة أن كتاب «دُرَر الحسان فـــي أخبار بعض ملوك السُّـــودان» مصدرٌ مهمّ من مصـــادر غرب إفريقيـــا؛ إذ يُقدّم معطيات تاريخيـــة عن أحداث منظمة، وأن نقولات تاريخ الفتاش عنه تكشـــف عن وجود مصدرٍ مَا يتمتّع بخصائص المصدر الأول من الدقة فيِ التأريخ والاستقلالية في الرواية، والجرأة في التفصيل، حين اكتفى غيره بالإجمال.

كمـــا أثبتت الدراســـة أن الكتاب لـــم يَضِعْ نهائيّـــاً، بل ضاع نتيجة اختلاط، وأن انتقاله من تنبكت إلى نيامي موثق بشـــهادة حية من موثوق تشـــكّل منطلقاً لا يمكن تجاهله في مسعى جاد للبحث عنه.

وقد خلصت الدراسة إلى النتائج الآتية:

١- أن «دُرَر الحســـان في أخبار بعض ملوك السُّـــودان» مصدر من الدرجة الأولى لدى تاريخ الفتاش، واعتمده ابن المختار في توثيق أحداث مملكة سنغاي وأخبار الباشوات المغاربة ووفيات أعيان تنبكت.

٢- أن الشـــخص الذي نقل مـــن الكعتيّين عنـــه هو محمـــود كعت الثالث المعـــروف بابن المختـــار، بدليل أن طريقةَ نقلـــه كانت حرفيةً خطيةً، وليست شفهية، ما يثبت أنه لم يكن على اتصال مباشر بصاحبه، بل اعتمد على النسخة المكتوبـــة. وهو نفس ابـــن المختار الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وهو نفســـه الذي كان ينقل الأحداث في كفاية المحتاج لأحمد بابا التنبكتي.

٣- أن ضياع الكتاب جاء في سياق سياسي قسري في أعقاب اســـتقلال مالي حين اضطر صاحبه إلـــى الرحيل من تنبكـــت إلى النيجر/ نيامي حامـــلاً مكتبته، قبـــل أن يدخل الكتاب لاحقاً في ســـجلات معهد الأبحاث بنيامي، ثم يختفي ضمن مخطوطاته غير المفهرسة.

وتوصي الدراسة بما يأتي:

فتح ملف «دُرَر الحســـان» رســـمياً بشـــكل يعطي أولوية بحثية مشتركة بين مؤسسات مالي والنيجـــر والمغرب، وأن تُبادر منظمة ســـافاما SAVAMA بتفعيل شبكتها الميدانية للتواصل مع أحفـــاد صاحب الكتاب المقيمين في نيامي، وأن تعاد فهرســـة مخطوطـــات معهد الأبحاث بنيامي فهرسةً شاملة بإشراف متخصصين في المخطوطات الإفريقية، على أمل أن الكتاب لم يَضِـــعْ نهائياً، وإنما ينتظـــر فقط من يعيده إلى مكانه في المكتبـــة، ومن يعيد إلى صاحبه بابَ غُورُو حقّه المغمور فـــي التعريف والتكريم بين كبار مؤرخي السودان الغربي ■